تقسيم جديد لتاريخ الأدب العربى

ر. بلاشير   ترجمة: د. احمد درويش

ان تحديد العصـــور فى تاريخ الأدب العربى ، قد تم ومازال غالبا يتم ، لا على أساس الظواهر الثقافية والاجتماعية فقط ، لكن بالدرجـــة الأولى على أســـاس الظواهر السياسية (تعاقب الدول) والتاريخية ، ولقد قاد ذلك الأساس الى تقسيمات غريبة ، كتلك التى نجدها فى كثير من كتب الملخصات أو كأن نرى مثلا مصطلح « العصر العباسى » الذى يشمل كل ما تم فى عالم الأدب منذ عام ٧٥٠ م حتى سقوط بغداد على يد هولاكو عـــام ١٢٥٨ م •

ولقد أحدث هذا الاتجاه ، المزعج دون شك ، ردود فعل لدى الدارسين الاوربيين ، دون أن نصل الى خصائص بدهية تسم « العصور » ويمكن أن تخدمنا بطريقة صحيحة ونحن ننظر الى التاريخ الأدبى ، ونحدد انتقالنا من فترة لأخرى •

ونحن نحاول هنا الوصول الى تحديد أدق لهذه العصور التى تمت خلالها التحولات فى النشـــاط الأدبى فى العالم العربى خلال أربعة عشر قرنا ، ونود أن نلقى أيضـــا ضوءا أوضح على بعض قضايا أصبحت مسلمة ، وعلى بعض اتجاهات تعد راسخة حتى الآن • ومن الممكن جـــدا خلال هـــذا البحث أن نجد أحيانا لونا من التوافق بين الأحداث السياسية والظواهر الأدبية ، ولكن ينبغى أن نتنبه مع ذلك الى أن هـــذا التوافق هـــو نتيجة لظواهر أكثر تعقيدا ، حيث لعبت الحياة الاجتماعية وتطـــور

الثقافة والتأثيرات المحلية دورا غير محدد ، لقد كانت هـذه « العصور » طويلة الى حد مـا ، ولقد كانت نتائج لأسباب امتدت أحداثها مع ذلك وقتا أطول بكثير فى مجرى الزمن ، وكما سنرى فلقد تميزت حدود هذه « العصـور » بسرعة الايقاع وبأحداث تعطى الاحساس بالتحـول ، والفترة التى تجىء تالية تواصل الاحتفاظ بخصائص السابقة فى مجالات كثيرة ،ولكنها مع ذلك تتميز بسمات تقودها نحـو « الصيرورة » وتلك السمات تكون فى البداية غامضة وحتى غير معبر عنها ، ولكن الوعى بها يتم فى الوقت الذى تكون فيه مقدمات « العصر » التالى قد بدأت فى الظهـور •

ان نظرة عامـة الى تطور الأدب العربى تسمح لنا بأن نميز خمسة عصـور :

العصر الأول : هـو عصر الذين حملوا دعوة محمد ورسالة الاسلام فى الجزيرة العربيـة ثم بعد وفاة محمد عام ٦٣٢ م حملوا الدين الجديد الى العراق والشـام ، وفيما يخص الأدب فان لحظة القمة فى هـذا العصر تأتى فى عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م ، ولقد كان ذلك الجيل فى الواقع هو الذى شيد الامبراطورية الجديدة على الاقاليم التى كانت تحت يد البيزنطيين والفرس وهى أقاليم كانت العربيـة انذاك معروفة فيها قبل ظهـور الاسلام • أما الذى يميز ذلك العصر فهو الدور الفعال الذى لعبته الكوفة والبصرة ، وهما حاضرتان تولدتا عن تلك الفتوحات التى قـام بها بدو وسط الجزيرة وشرقها ، واتخذوا منهما منطلقا لتحركاتهم المنتصرة نحو الشرق والشمال ، وهاتان القلعتان ، منعشتا تقاليد الحيرة ، جارتهم المتداعية على مشـارف الصحراء ، قد حققتا للابداع العقلى والشعرى خاصـة ، تألقا وانطلاقا لم يكونا معروفين حتى تلك الفترة •

ويتميز ذلك العصر كذلك ، بظاهرة لغوية ، وضعت الاطار الذى سوف تسير عليه كل الحضارة العربية — الاسلامية حين استبدلت باللهجـات

التى كانت مستعملة فى مجمل المجال العربى ، لهجة كان شيوعها مقصورا على المجال الشعرى حتى نزول الوحى القرآنى ، وارتفعت بفضل القرآن الى مصاف لغة دينية حاملة لرسالة الله الجديدة الى المؤمنين ، وخلال جيلين على وجه التقريب ساهمت حركة الفرس العميقة للعربية والاسلام فى العراق ، فى جعل ذلك الاقليم بوتقة تندمج من خلالها رويدا رويدا الظاهرة الايرانية فى تلك الظاهرة القادمة من المجال العربى •

أما العصر الثانى : فان لحظة القمة فيه يمكن أن تكون نحو عام ٧٢٥ م • أما الظواهر التى تحكم بدايات هذا العصر فقد نشأت وتطورت فى الشام والعراق والحجاز حيث يوجد المركز العصبى الذى كان يدير آنذاك منطقة الشرق الأدنى • وهناك فى هذا المجال ظاهرة مدهشة : ففى خلال الفترة التى مثلت طلائع هذا العصر ، وعلى الرغم من وجود الأسباب المشجعة وعلى الرغم من حماية السلطة المركزية فان الشام لم تمثل المركز الحقيقى للابداع الأدبى [٢] • لقد كانت دمشق فقط محور جذب لشعراء المديح المحتاجين القادمين من خارج الشام ، من العراق وشرق الجزيرة والحجاز [٣] • وكان الحجاز بين عامى ٦٥٠ و ٧٢٥ م ، قد ولدت فيه بالاضافة الى ذلك مدرسة شعرية ، نستطيع أن نتبين فيها محاولات — أجهضت للأسف — لكى تستقل عن التقاليد الشعرية للصحراء ، ولتمنح نفسها اطارا جديدا ، وحتى موسيقى جديدة قادرة على أن تمنح جوا مناسبا لغنائية نشطة ، حية ، وصادقة وشخصية • وهنا يتحدد ويتأكد من جديد الدور الرائد الذى آل دون منازعة الى الحاضرتين العراقيتين البصرة والكوفة • فاليهما يرجع الفضل فى زيادة سرعة حركة التطور الأدبى • وبتحديد أكثر فان الأمر لا يتعلق بأى شىء آخر الا بتشجيع تيار فكرى ومناخ عقلى واجتماعى ، وتلك الأشياء هى التى سوف تضع نهاية للعصر السابق • وسوف تزيل عن التقاليد الشعرية للصحراء هيبتها ، تلك التى كانت قد بدأت فى الاهتزاز فى الحجاز •

لقد عرف هذا العصر الأدبى بتفوق حاسم للعراق ، وازته من

ناحية أخرى ثورة سياسية • نقلت مركز الدولة من ســـوريا الى العراق ، وأحلت العباسيين فى الحكم بفضل مساندة العناصر العربية ــ الايرانية ، ويشكل انشـــاء بغداد عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م النقطة الحاسمة التى سيتطور بدءا منها عصر يمتد أكثر من قرن ونصف ، حيث تفرض السيطرة الأدبية للعراق نفسها فى دائرة تتسع على الدوام نحو الشرق ونحو الغرب •

ومثل كل « العصور الذهبية » لم يكن عصر التفوق العراقى خاليا لا من الاضطرابات السياسية ولا من القلق الدينى ، وبقدر ما تتأكد معرفتنا بالنشاط الأدبى فى هذه المنطقة من العالم فى العصر الذى يهمنا ، ترسم أمامنا التيارات وتتحدد المراحل المتتالية • والانجاز الحاسم هنا يتمثل فى خلق النثر الأدبى تحت تأثيرات ايرانية وهيلينية ، وهـــو نثر يبعـــد عما عرفـــه العالم العربى الاسلامى من نثر عاطفى ، لقد صاغت الاوساط « المدنية » فى العراق اذن أداة التعبير التى تفى بالحاجات العقلية والروحية لذلك المجتمع الجديد ، وفى نهاية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، سوف تتم المعجزة ويخرج النثر الأدبى من فترة « الحمل » ، أما الذى شغل فترة التكوين هذه فهو الايرانى ابن المقفع (م ١٣٩ هـ / ٧٥٧ م)(٤) ، ولدينا أيضا معرفة ضئيلة جدا للأسف عن الدور الذى قام به ايرانى آخر هـــو سهل بن هارون (م حوالى ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) (٥) فى النمـــو بهذه الاداة اللغوية التى كانت قد أثريت وطوعت ببراعة على يد سلفه • ولكنا نستطيع مع ذلك أن نفترض أن هـــذا الدور كانت له نتائج غير محدودة ، وأن العراقى الجاحظ (م ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) قد أحس جيدا بهـــذا الدور ، وهـــو الذى استطاع ببراعة أن ينسج على منوال أسلوب كان فى نهاية الأمر غير موجـــود بين يديه •

أما الانجاز الثانى الذى يقدمه ذلك « العصر الذهبى » والذى أعطاه اتجاها مميزا فقد كان ممثلا فى هذه الحركة العقلية التى جرى العرف على تسميتها «روح الأدب » تلك الحركة التى تلتقى فى أصولها الروافد الايرانية والهيلينية ، وتتميز فى كثير من نقاطها بتفتح انسانى حقيقى ، ولقد ولـــدت

هذه الحركة وتطورت فى العراق ، فى نفس الوقت الذى واد وتطور فيه المذهب الدينى « للمعتزلة » بطريقة تسمح لنا بأن نكتشف أن ما بين المذهبين ليس فقط مجرد المصادفة ، وانما من باب أولى تقارب ارادى ، ألم يكن الجاحظ وسهل بن هارون المعتزليان هما نفسهما أبرز ممثلى حركة « روح الأدب » هذه ؟

ودون أدنى شك ، فان أكثر الأرواح اخلاصا فى ذلك الجيل ، تراجعت فزعة أمام صياغات أفكار تعطى الاحساس بوجود قوة متوالدة لنزعة انسانية ملحدة ولكن لم يتردد البعض مع ذلك فى الأندية الأدبية فى الكوفة والبصرة وبغداد أن يشارف فى بعض الخطب والكتابات ، اتجاهات يقود الشك فيها الى انكار حقيقى وعميق ، ولم يعد الأمر مجرد محاولات مستبسلة للتوفيق بين الدين والفلسفة ، ويعكس جيل الكتاب والشعراء الذى بلغ قمة نضجه فى نحو عام ٨٦٠ م نوعا من التراجع أمام النتائج التى أحس أنه سوف يرتبط بها ، فابن قتيبة مثلا (م ٢٧٦ هـ ٨٨٩ م) كان نموذجا واضحا للبلبلة الداخلية ، ففى سن العشرين تبرأ من التيارات الفكرية المثارة فى خلافة المتوكل (تولى من ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) الى (٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) وأصبح من زعماء المفكرين فى العراق الذين يحاولون — بتأثير من الطبقة الحاكمة — ايقاف تصاعد أفكار الشيعة والمعتزلة ، دون أن ينكر مع ذلك ما يمكن أن تمثله من أفكار ، حركة « روح الأدب » (٦) وهناك مواقف وسيطة تسمها روح التأقلم هذه عند بعض الشعراء من نفس الجيل ، مثل أبى تمام وابن الرومى وابن المعتز الذين كانوا يجهدون فى الحفاظ على تقاليد الشعراء القدماء الكلاسيكيين مع محاولتهم فى نفس الوقت تجديد الشعر واخضاعه لذوق العصر ، وعندما يصل الشعراء والكتاب الى مرحلة كهذه ، فانهم يهدأون ولا يحسون بالقلق الذى كانت تبعثه مجهودات مضنية بذلت منذ حوالى سبعين عاما خلت على يد شعراء من أمثال أبى العتاهية وأبى نواس لكى يكتشفوا منفذا يعبرون من خلاله عن مشاعرهم الذاتية .

مع نهاية الربع الأول من القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، يبــدأ « **العصر الثالث** » الذى ينهى « العصر الذهبى » ، وهناك ظاهرتان تسودان هــذا العصر الذى يغطى عشرات السنين ، فعلى الرغم من فعالية مجهودات كتلك التى نشرتها العبقرية الفنية غير القانعة للشاعر المتنبى (ت ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م) وعلى الرغم من الغنائية الشديدة الصفاء لأبى فراس (ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م) فقد انقطعت صلة الشعر شيئا فشيئــا بجذوره الشعبية ، وعاد ليكتسى مظاهر « العلمنة » والتحذلق ، وهى أثواب لها قيمتها عند طبقة المتأدبين والارستقراطيين ، أما النثر — ولنضع جانبا التاريخ والجغرافيا الوصفية — فقد أخذ يبحث هو أيضا عن وســائل ارتقائه من خلال أسلوب نمطى ، مع جنس « المقامة » الذى ظهر على يد الايرانى الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) ولقد أظهرت هذه الأشياء حقيقة بديهية ، هى أن « روح الأ دب » توقفت عن أن تكون انفتاحا على النزعة الانسانية العلمانية ، ولم تعد من الآن فصاعدا الا لعبة أدبية ، وفضولا للعلماء ولجامعى النصوص ، وتأكيدا للبراعة اللفظية .

واذا كان التخلى عن « روح الأدب » قد أدى الى نوع من البلبلة ، فان هنالك ظاهرة أخرى قد احتوت ذلك « العصر » وأدت على أى حال الى لون من التوازن فى النتائج ، فهــذا « العصر الثالث » من خلال تناقض ظاهرى أكثر منه حقيقى ، كان يحس بلون من السعادة بسبب تفتت الخلافة العباسية ، هذه الخلافة التى كانت تنتهج من البداية سياسة المركزيــة ، قد تركت المكان لامارات قوية الى حد ما ، حاولت عاصمة كل منها ان تصبح منافسة لبغداد ، ولم تعد للعراق الهيمنة الفكرية على تلك الأقاليم ، ولكن الحضارة الاسلامية العربية فى أشكالها التى نمت فى بغداد ، زرعت ونمت فى كل أرجاء الأقاليم تحت رعاية نصراء الأدب والأمراء والحكام .

ولقد كان انشاء لون من الاتحاد الايرانى — العراقى تحت سلطة البويهيين الشيعية بدءا من عام ٩٤٥ بمثابة تأكيد على الطابع الانفصالى السياسى والدينى والفكرى ، وكان استقرار الفاطميين فى مصر ، واتساع

دولتهم التى امتدت من أفريقيا الى سوريا ، قد خلع عن حركتهم ما كانت توصف به من أنها فى « دور التطور » ولسوف تصبح القاهرة التى أنشئت فى عام ٩٦٩ منافسا لبغداد ، بينما ترتفع قرطبة بدورها تحت حكم الأمويين الى مصاف حاضرة أوربية للحضارة العربية — الاسلامية ، وتستمر هـذه المراكز طوال ذلك العصر الثالث مع خضوعها الرمزى للعراق ، ولكنها مع ذلك تشكل اتجاهات قوية ، تبدو فى البداية مترددة ، ثم شيئا فشيئا ، ذات طابع مختلف عن النمط العراقى •

لكننا نحس بسرعة مع ذلك ، أن هذه المجهودات تتحرك أكثر مما ينبغى فى اتجاه سياق عقلى واحـد ، وتحت تأثير قوى واحدة ذات أنماط موحدة ، وهى لا تتوقف لحظة لكى تلقى نظرة شاملة خـارج اطارها ، ولتراجع ألوانا من « قوائم » انتاجها كان وجودها وحده كافيا لأن يحطم هذه المحاولة للاحياء الأدبى ، حتى ولو كانت هذه الالوان قد وجدت قبولا ورضى لدى أوساط كثيرة •

ان ذلك « العصر الثالث » لا يعد بداية لعصر « ذهبى ثان » ، وهناك كثير من الكتاب والشعراء واصلوا النسـج على منوال النمط العراقى ، وهم مهرة فى فنهم ، محبون لأدوات تعبيرهم ، ممتلكون ، دون شك ، ناصية لغتهم العربيـة ، وكبريات كتب « المختارات » التى نراها تظهر فى القرنين الحـادى عشر والثانى عشر ، سـواء فى الشرق أو الغرب الاسـلامى تريـنا غزارة الانتاج الأدبى ، وفى نفس الوقت ، مقدرته الفائقة علـى تجديد قـوى روافد أدبية أكثر حيوية •

فى خلال مؤتمر عقد فى مدينـة « بوردو » فى الخمسينات من هـذا القرن ، جرت مناقشات طويلة ومن زوايا متعددة لقضية « التدهـور » ، وعندما نصل الى هذه النقطة فى تاريخ الأدب العربى ، لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من اثارة هـذه القضية ، وقبل كل شىء نتسـاءل : هل من الممكن أن نحـدد مقاييس كلمة « التدهـور » وكما لاحظ البروفيسور بول ليمرل فى هـذا المؤتمر ، كيف نستطيع أن نتصـور هـذا المفهوم جيدا

عندما يتعلق الأمر بحالة « بيزنطة » مثلا ، وهى حالة يمتد فيها التدهور خلال ألف عــام ؟ ونفس الأمر تماما يتمثل فى حالــة الأدب العربى ، فكيف نطلق نفس المصطلح على الخمســة القرون التى تبدأ من اختفاء الدولــة البويهية فى عام ١٠٥٥ حتى ظهور القوة العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط حتى المغرب فى أوائل القرن الســابع عشر ؟ لقد كان هناك طوال هــذه الفترة الطويلة ، وخلال عدة فترات ازدهار ، شعراء وكتاب سجلت أسماؤهم استمرار التقاليد الأدبية سائدة فى كل أرجــاء العالم العربى والاسلامى ، ففى أسبانيا ترك ابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) نتاجا أدبيا يعكس بعمق تجربة شعورية حادة وقلقة . أمــا السيسيلى ابن حمديس (ت ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م) الــذى كان من ضحايا الغزوات الخارجية فى أسبانيا ، فقد وجــد نغمة حادة غنى من خلالها آماله واخفاقاته ، وتحت حــكم الايوبيين فى مصر كان بهــاء الــدين زهــير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الذى عرف كيف يزاوج بين متطلبات شــاعر مادح وشاعر رثاء حزين بطريقة تستحق أن يركز عليها ، لقد كانت تظهر أحيانا خلال هذه الفترة محاولات لأحياء لون من « الغنائيــة » أكثر عفوية وأقل رحابة ، وتعبر عن نفسها من خلال لغة نصف شعبيــة ، وفى هــذا المجال فان قيمــة كبيرة تكتسبها أعمال الأندلسى ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) والعراقى صفى الدين الحلى (ت حوالى ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) على الرغم من الاتجاه المريع الذى أخذه الكتاب الذين يستخدمون النثر على الرغم من الاتجاه المريع الذى أخذه الكتاب الذين يستخدمون النثر الأدبى ، والذين يستهويهم دائمــا البحث عن صيغ شديدة « الاتقان » فان القرون الخمسة التى نحن بصددها قد شهدت كذلك مولد كتاب ذوى قيمة لا نزاع عليها ، ان فى كتابات المفكر الدينى الغزالى (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ — ١١١٢ م) صفحات تذكر فى أسلوبها ولون تفكيرها بكتابات « باسكال » (٧) ، وحتى لدى أسلوبى متأنق مثل الوزير القرطبى ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) فانه كان يعرف فى الوقت المناسب ، متى يطرح الكتابة بالاسلوب المبالغ فى التفنن ، والذى كان عليه ذوق العصر ، لكى يعود الى بساطة

كبار الناشرين [٨] بل أننا نحس كذلك من خلال الصرامة التى فرضت على أكثر الاسلوبين تمسكا بالقواعد « البلاغية » نحس آثار حركة انسانية تمثلت بوضوح فى ثقافة فترة حكم المماليك فى مصر طيلة القرن الرابع عشر ، والتى تعكس أعمال ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) وأعمال النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) واللذين ينبغى أن نضيف اليهما التونسى ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) سواء من خلال ثقافته الموسوعية أو من خلال قدرته على أن يعطى فى « المقدمة » منهجا ملموسا يستطيع أن يفسر المواد المتنوعة المعالجة •

ونتيجة لذلك فاننا نرى أنه بالنسبة لنصف الألف الثانى (١٠٠٠ — ١٥٠٠ م) لا تنطبق كلمة التدهور تماما على الحالة الادبية ، ولكننا ينبغى أن نسجل مع ذلك أن هذه الفترة شهدت فقط نوعا من البطء والخمول وضعفا فى الخلق الأدبى لدى الشعراء والكتاب ، فلم ينشأ أى جنس أدبى جديد لدى هؤلاء ، لقد كانوا مترعين بنماذج كثيرة ، قدمها لهم أدباء كبار يحملون لهم الاعجاب لأنهم كذلك « قدماء » ومن ثم حدد أدباء وشعراء هذه الفترة أنفسهم فى اطار « اعادة انتاج » روائع الماضى وكان كل واحد منهم من ناحية ثانية مشغولا ومحاصرا بدرجة أو بأخرى بالتفنن فى اتقان أدائه والتبحر فى المعرفة ، وأيضا بحاجة الى أن يضع موضع الشك والتساؤل والمحاكمة « القيم » التى يتناقلها جيل بعد جيل من خلال العالم العربى والاسلامى •

حين نضع أى أدب فى دائرة ما حوله فاننا نجده يعانى من التقلبات الاجتماعية والسياسية المحيطة به والتى لا تنفصل على تاريخه • وفيما يخص الأدب العربى ، فلقد بولغ بالتأكيد فى أهمية سقوط بغداد على يد هولاكو المغول عام ١٢٥٨ م ، فلقد كانت هذه العاصمة فى الواقع ، قد توقفت قبل قرن من السقوط عن ان تمد العالم العربى — الاسلامى بأى كتاب أو أى شاعر يمكن أن يعد من هؤلاء الكبار الذين ميزوا « العصر الذهبى » ، ولم يكن ذلك الخسوف فى النشاط الأدبى الا تأكيدا لانتقال

السيطرة الأدبية انتقالا كاملا الى القاهرة التى كانت حتى ذلك التاريخ تتقاسمها فيه عواصم أخرى •

وفى الطرف الآخر لعالم الاسلامى ، كان هناك حادثان فصل بينهما عدة سنوات وربما كان لهما بالنسبة للحضارة العربية الاسلامية نتائج توازى على الأقل فى أهميتها سقوط بغداد • ففى عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م دخل ملك قسطلة فرديناند الثالث قرطبة منتصرا ، وفى عام ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م سقطت اشبيلية بدورها فى يد المسيحيين ، ولقد تميز الاضطراب الناتج عن هذين الحادثين ، بهجرة كبيرة لكل العناصر الفكرية التى كانت تحتويها هاتان الحاضرتان الفكريتان الكبيرتان من علماء وفلاسفة وكتاب وشعراء ، وذلك الاضطراب كان مع ذلك مقيدا لمدن المغرب التى كانت قد بدأت آنذاك نشاطها « الروحى » ولسوف يستقر سريعا عدد من أولئك العلماء المهاجرين فى مدن مثل « تلمسان » و « بوجى » وعلى نحو أخص فى « تونس » حيث أوسعت الطبقة المستنيرة من مفكرى دولة الحفصيين ، مكانا فى الصدارة لاولئك المهاجرين ممثلى الثقافة العربية الاسلامية (٩) •

ويبدو أن تلك الأسباب ، كانت بالنسبة للمغرب — كما كانت بالنسبة لمصر أيضا — سببا فى تحول الثقافة اليهما ، على أنه ينبغى الاعتراف كذلك ، أن تلك الثقافة تعرضت فى القرون التى تلت هذه الفترة لمخاطر من جراء الصراعات الداخلية ، ولمخاطر أشد من جراء الصراعات الخارجية كالصراع بين الحفصيين وأعدائهم بنى مرين فى الشمال الافريقى ، وكالحرب ضد المغوليين ومن بعد ضد الاتراك فى الشرق الأوسط ، أما الظاهرة الكبرى ، فهى تلك التى حدثت فى نهاية القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، بعد سقوط القسطنطينية ، وخلقت فى حوض البحر المتوسط هواء جديدا تمثل فى تألق القدرة العثمانية •

اذا كان لا بد لحاجة فى النفس ، أن نجد تاريخا « **للعصر الرابع** » بالنسبة للأدب العربى ، فاننا يجب دون تردد أن نقف أمام عام ١٥١٧ م ،

تاريخ دخول السلطان العثمانى سليم الأول الى القاهـرة ، واستقراره النهائى بمصر ، فلقد حدثت فى خلال هـذا العام ظاهرة لم تكن متصـورة حتى ذلك الحين ، فللمرة الأولى منذ ظهور الاسلام ، تأتى دولة حاكمة ، تحمل معها تصـورات ونظما ادارية ، يقود تطبيقها الى تضيق الخناق على « العربية » ، وتستقر فى الشرق وتتوسـع شيئا فشيئا حتى تصل الى الجزائر ، ودون شك فانه من الافراط أن نعزوا الى الاستعمار العثمانى وحـده السبب فى وجـود فترة السبات التى سيطرت خلال أكثر مـن ثلاثة قرون على الأدب العربى ، ولكننا ينبغى أن نعترف مع ذلك ، أنه فى نمط مماثل من الحضارات كالحضـارة العربيـة الاسلامية ، يقوم فيها الحكام والامراء والاستقراطيون برعاية الآدب من خلال مؤسسات حقيقية ، فان اختفاء الحكام الذين يهتمون أو يعرفون الثقافة العربيـة شكل ضربة قاتلة لتطـور النشاط الأدبى ، وخطورة تلك الضربة ، لم يكن لها بالتأكيد نفس الثقل فى كل مجالات ومناطق المتحدثين بالعربية ، فاذا كان الأمر يتطلب قدرا كبيرا من الصلابة ، وحتى من البطولة ، بالنسبة لممثلى الثقافة العربيـة ، لكى يدافعوا عن تراثهم فى بغداد وحلب ودمشق وبيروت والقاهرة والاسكندرية ، فان ثقل السلطة العثمانية ، لم يكن بنفس القدر فى تونس وتلمسان ، ويستطيع المرء أن يقول : ان المغرب عرف كيف ينأى بنفسـه جانبا عن هـذا التيار الخانق ، عندما يرى ثراء الانتاج الفكرى فى مدينـة مثل فاس حتى القرن التاسـع عشر •

ان القول بوجـود مخطط لدى السلطات العثمانيـة ، لاخماد الأدب العربى ، قول ثابت ، لكن الموضوعية تقضى مع ذلك بأن نقول : ان خمود ذلك الأدب ، كان لأسباب أخرى • وان تحليلا سريعا للانتـاج الروحى والدراسات الدينية خلال هذه القرون الثلاثة التى هى موضع حديثنـا ، يكشف عن وجـود حركة أكثر عمقا من الحركة الأدبية مع انها ترتبط بنفس قوالب النشـاط الفكرى •

فمن خـلال تهديد أفريقيا الشمالية ، بحركات التوسـع البرتغالية

والاسبانية ، صاغت الجماعات الاسلامية ، وسائلها الخاصـــة لدفاع عن نفسها ، ولتأكيد كيانها ســـواء فى المجال السياسى أو الروحى ، وتحت روح العطش الى الهروب والبعد ، اتجه البعض الى الانغماس فى دراسة الاتجاهات الصوفية ، وآخرون مدفوعين بالمحافظة على امهات الكتـــب « الموروثة » عن العروبة ، اتجهوا الى النحو والبلاغـــة وكتب التفسير والفقه . وجـــد هـــذا وذاك وخاصـــة فى المغرب ، ووجدت كذلك كتابات تاريخية ، تسجل — مقلدة نماذج قديمـــة — تاريخ الممالك المحلية وتاريخ الطوائف أو المدن التى اشتهرت بالعلم ، مثل فاس وتلمسان وتونس والقاهرة ودمشق ، ونستطيع أن نكتشف أحياناً بقايا من النزعة الانسانية التى سادت القرون الكبرى فى الحضارة العربية — الاسلامية ، وهى نزعات تمسنا بنواياها ، أكثر مما تمسنا بقيمتها الحقيقية .

فى مثل هـــذا المناخ ، ماذا يمكن أن يصبح الشعر وألوان الانتـــاج الأدبى الخالص ؟ حتى مع وجود النوايا الحسنة لبعض الفنانين وبعض الكتاب ، ما هى الفرص التى تتيح لنا أن نلتقى فى شمال أفريقيا وفى الشرق الأوسط ، بعوامل مشجعة حقيقية ، تثير وتؤمن استمرار التجديد ؟ . خلال تلك القرون الثلاثة ، لم يكن أمام أولئك الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بالتذوق وحتى بالعاطفة « للأدب الجيد » من سبيل ، الا اعجابهم بانتاج القدماء ، الذى كانوا يعرفونه غالبا ، من خلال كتب « المختارات » التى كانت قد أصبحت بدورها قديمـــة .

أما ان ذلك الاعجاب قد قادهم الى محاولة النسج على منوالـــه ، وأحيانا الى تقليده تقليدا هزيلا ، فذلك ما لا جدال فيه ، ولكن ذلك كان من نتائجه أيضا أن تأخذ تلك اللغة التى يقلدونها ، مكانة شديدة السمو . ولقد كان يمكن أن يكون لمثل هـــذا الموقف ، ثقل هام ، ولكن حقائق الظروف المحيطة ، منعت من أن تقود هذه الأسباب ، الى يقظة وانعاش للنشاط الأدبى .

ذلك العالم العربى ــ الاسلامى الذى تناقصت أبعاده ، لم يعد يمثل اذن فى منطقة البحر المتوسط ، هذه الدوائر الواسعة ، التى تمتزج فيهـا الشعوب ، حيث تنتعش الحياة الفكرية حتى من خلال الصدامات العنيفة ، كما أثبتت ذلك العصور الوسطى الاسلامية فى أسبانيا وفى الشرق الاوسط ، ولسوف يظل الأدب العربى على حالة محزنة قانطة ، بدون صدى خارجى ، حتى فجر القرن الثامن عشر ، حيث تفتح النوافذ التى من خلالها تخترق التأثيرات الكهربائية نحـو تجديد جذرى •

وقبيل منتصف القرن الثامن عشر ، بدأ الاحساس ، ببعض الاشارات التى كانت منطوية على نفسها فى بعض مناطق الشرق الأوسط ، وبدأت بعض الأصوات اذن تسمع نفسها على خجل ، ودون أن تحمل عطـاء كبيرا ، مثل المثقف المـارونى الكبير الذى كان قسيس حلب « جرمانوس فرحات » ت ١٧٣٢ م ، واخترقت معجزة الطباعة والكتاب لبنان ، فوجدت المطابع والفنيون خاصة لسـد حاجات الجالية المسيحية (١٠) •

وفى عام ١٧٩٨ كان ذلك الحدث المفاجىء ، نزول بونابرت فى مصر ، وكان ذلك المشهد لعلماء فرنسيين يحملون معهم مناهج للبحث ، تحدث عنها الشيخ الجبرتى لمعاصريه بلهجة القلق ، وكان انشاء المطبعة الحكومية فى بولاق ١٨٢١ ، يؤكد أن محمد على ، كان على وعى بكل ما يمكن أن يحصل عليه ، من خلال تجديد الثقافة العربيـة ، من عـون لـه فى نزاعه ضد القسطنطينية ، وكان ارسال بعثات مصرية الى فرنسا من مواطنين ينتمون الى طبقات متواضعة كطبقة رفاعة الطهطاوى عام ١٨٢٦ ، يؤكد من ناحية ثانية ، أن تجديد الثقافة العربية الاسلامية ، لن يكمل دون مساعدة أوربا ، وبالطبع فان الأدباء ، ذوى الثقافة العربية فى حوالى ١٨٤٠ مسيحيين كانوا أو مسلمين ، سوريين ، لبنانيين أو مصريين ، لم يكن بينهم من يفكـر فى الانفصال عن التقاليد الأدبية الموروثة من المـاضى ، حتى مارون النقاش (ت ١٨٥٢) وهو واحد من أكثر ممثلى الاتجاه الجديد تحمسا ، ومن أصحاب فكرة التجديد عن طريق الثقافة الفرنسية ، ظل خادما متحمسـا كذلك ،

لتقاليد فترة « العصر الذهبى » فى الأدب العربى .

لقد كان هناك شعور بأن كل الأمور معدة من أجل ارتحال جديد ، لكن ذلك الارتحال ، لن يكون مع ذلك هدما للتراث الذى تلقوه عن الماضى .

أما العصر الخامس والأخير فى الأدب العربى ، فيقع بين عامى ١٨٦٠ و ١٨٨١ ففى هذه الفترة فى الواقع ، قدمت عوامل التجديد أولى نتائجها ، فالأقاليم الهامة فى الشرق الأوسط : سوريا ولبنان ومصر ، خرجت فى هذه الفترة بصفة نهائية من عزلتها ، ومعجزة الكتاب عممت ، والصحافة اليومية والأسبوعية والموسمية ، تتسع شيئا فشيئا تحت عيون جمهور ، لم يزل محدودا ولكنه متحمس ، والأهمية التى يعترف بها هنا ، هى « الديمقراطية » التى ما تزال نسبية الى حد بعيد ، فى مجال التعليم ، ونتائجها المتنوعة ، وطرائقها التى بدأت تنتج جمهورا قارئا ، ولقد كان أول نتائج الوعى ، هذه القومية المصرية فى وجه التوسع الاستعمارى القادم من الغرب ، ممثلة فى ثورة عرابى باشا ، تحفزها اتجاهات كتاب وشعراء كانوا متأثرين بثقافة الماضى وحده .

لقد وصلنا الى عصر النهضة ، ذلك العصر الذى يريد البعض أن يعتبره ببساطة مجرد صحوة ، لكنه يحمل فى ذاته قوى أخرى ، عكست آثارها آداب العالم العربى ، وأمام غزارة الانتاج الذى ينبثق ويتدفق ، لم يعد من الممكن لأحد أن يظل غير مبال ، وغير فاهم ، لقد كان وجود أجناس أدبية لم تكن معروفة فى « العصر الذهبى » مثل المسرح واليوميات والترجمة الذاتية وخاصة الرواية والقصة القصيرة ، دلائل لمن يعرف كيف يرى ، على ثورة عقلية وأخلاقية ، تساوى فى عمقها وعاطفتها ، ما مثلته للغرب الأوربى ، فترة عصر النهضة .

(١) هذا المقال ترجمة لدراسة لباشير عنوانها «Moments» Tournant Dans La Littérature Arabe والمنشورة بالعدد XXIV من مجلة Studia Islamica عـــام ١٩٦٦ .

(٢) يؤكد ذلك أن عدد الشعراء الذين ينتمون الى هذا الاقليم لا يتجـــاوز

عدة أسماء . انظر : تاريخ الأدب العربى لبلاشير ص ٤٦٥ — ٤٧٦ .

(٣) من أمثال كثير ، والفرزدق وجرير وغيرهم كثيرون .

(٤) هناك دراسة ألقت كثيرا من الضوء على ابن المقفع ، قدمها المرحوم « بن غازى » وحصل بها على الدكتوراه من جامعـــة السربون ١٩٥٩ ، ولم تطبع هـــذه الرسالة بعد للاسف .

(٥) حول سهل بن هارون ، أنظر : كراميس ، فى دائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٦٤٥ ، وكذلك الدكتوراه من السربون ولم تطبع بعد ، وانظر كذلك : مهرى : حوليات جامعة تونس ١ : ١٩٦٤ ص ١٩ — ٤٠ .

(٦) حول هذا اللون من التأقلم الذى يمثله ابن قتيبة ، أنظر : لكونت : ابن قتيبة ، ص ٤٢١ — ٤٣٠ .

(٧) من المفيد أن تجمع ، بعيدا عن الفقرات العقائدية والجدلية ، تلك الصفحات التى يتجول فيها المؤلف بحرية متحدثا عن حاجاته فى التكوين والتثقيف ، وتلك الصفحات كثيرة فى « الأحياء » ، وأنه لعمل جيد ما قام به الأب شيخـــو من اقتباس عدد كبير منها فى « مجانى الأدب » .

(٨) نجد أمثلة من هذا فى كتابه « الاعلام » تحقيق ليفى بروفنسال .

(٩) كانت هذه الهجرة مثلا هى السبب الذى دفع أجداد ابن خلدون الى ترك اشبيلية ليستقروا أولا فى كوتا ثم فى بون وأخيرا فى تونس ، حيث شغل جـد عبد الرحمن بن خلدون عملا اداريا فى بلاط بنى حفص : انظر « بيـــلا » : دائرة المعارف الاسلامية ٢ : ٤١٨ .

(١٠) فى القرن السابع عشر ، تركزت المجهودات أولا حول طبع كتب الطقوس الدينية بالسريانية وأول كتاب طبع بالعربية فى لبنان ، كان مبادىء اللغة العربية عام ١٦٢٤ ، ومتن الاجرومية ١٦٣٣ ، أما انتشـــار الأفكار من خلال طبع الكتب ، فقد تطور على نحـــو خاص منذ أواخر القرن السابع عشر . انظر ف . ج . نصر الله : الطباعة فى لبنان ١٩٤٩ .